السيرة النبوية

محمد رسول الله والذين معه

بنو إسماعيل

عبد الحميد جودة السحار

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخلِصُونَ * أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كانُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَم اللهُ ، وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

(قرآن كريم سورة البقرة : ١٣٩ ، ١٤٠)

وهذه مواليد إسماعيل بن إبراهيم ، الذى ولدته هاجر المصرية جارية سارة لإبراهيم ، وهذه أسماء بنى إسماعيل بأسمائهم حسب مواليدهم : بنايوت (نابت) بكر إسماعيل وقيدار ، وإذبئيل ، وميسام ، ومشماع ، ودومة ، ومسا ، وحدار ، وتيما ، وبطور ، ونافيش ، وقدمة . هؤلاء هم بنو إسماعيل ، وهذه أسماؤهم بديارهم وحصونهم » .

(التوراة ــ تكوين ٣٥ ، ٣)

قال ابن عباس : نحن معاشر قريش من النبط .

١

أنفاس الدين تتردد فى جنبات مكة ، وقلب الإيمان يخفق فى أول بيت وضع للناس ، والفيض الروحى يومض فى قلوب المؤمنين فيرفع أحلامهم إلى ما وراء الطبيعة ، إلى هدف علوى تشتاق الأفئدة إليه وتقصر عن أن تبلغ مداه وإن جدت فى الطلب ، وإن اجتهدت فى العمل .

فيثارة الإيمان تعزف ألحانا تسمو بالمؤمنين إلى رحاب السماء فتبث فى نفوسهم قوة تدفعهم إلى العمل فى سبيل الله ، وتجعلهم يسيرون فى تناسق فى اتجاه واحد ، فإلـٰههم واحد وقبلتهم واحدة وغايتهم واحدة هى إعادة كلمة الله .

كانوا يعيشون لله وفى الله وبالله ، اشتعلت الشعلة المقدسة فيهم وأنار النور ـــ الذى أنزله الله من السماء ـــ طريقهم ، فإذا بالمجتمع الصغير الذى تكون حول بئر زمزم قد انصهر فى مجتمع واحد متناسق ، أفكاره واحدة وعقيدته واحدة ، اتحدت كلمته واتفقت نظرته واطمأن إلى أن المجتمع لله والأرض لله ، ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، بيدك الخير إنك على كل شىء قدير ﴾ .

وانحدرت الشمس لتغرب خلف جبال مكة فخرج الناس من خيامهم التى انتشرت على سفوح الجبال ، وراحوا يهبطون إلى الوادى المقدس ليطوفوا بالبيت العتيق .

وخرج نابت بن إسماعيل من خيمته وكان شيخا جليلا ، ولى أمر البيت بعد أبيه إسماعيل ؛ إنه من الصفوة خلاصة حضارتين عظيمتين ، حضارة بابل

ومصر ، فقد كان جده خليل الرحمن من أور وجدته هاجر من مصر ، وكان أول وريث للنفحة الروحية التى بثها فى مكة جده وأبوه .

تعلم أن الإنسان لا يعيش بالخبز وحده ، فكان يبارك قوافل التجارة الغادية إلى مكة والخارجة منها ، وفى نفس الوقت يغذى الوجدان الروحى النابض فى قلوب المؤمنين ، ويقيم حضارة المجتمع الجديد على تقوى من الله وأساس من الدين .

جاب إبراهيم مشارق الأرض ومغاربها يدعو الناس إلى عبادة الله فى بابل وسورية وفلسطين ومصر وبلاد الحجاز ، وخرج إسماعيل لدعوة اليمن إلى الله الواحد القهار ، كانت دعوة إلى أخوة عالمية وإلى إقامة نظام عالمى تسوده شريعة الله ، فورث نابت الفكرة و لم يتعصب للقومية الجديدة التى كانت تتبلور حول زمزم والبيت المحرم ، بل كان يجوب الآفاق ويبعث قوافل المؤمنين إلى الأرضين دون أن يعترف بحواجز ولا حدود ، فالأرض كلها لله .

كان نابت من الطبقة الممتازة القادرة على حمل الرفاق إلى طريق الدنيا والدين ، إلى عز الحياة ونعيم الآخرة ؛ وكان صوته يفعل فى الجماهير فعل السحر ، كان يوقظ الهمم ويبعث الأمل ، فهو منذ أن ولدته أمه معقد الرجاء ، وقد نزل فى سويداء قلوب المؤمنين .

ونظر نابت حوله فرأى غنمه وغنم قومه قد غطت سفوح الجبال ، فلم تتهلل بالفرح نفسه ، و لم يسل لعاب طمعه ؛ فقد تحرر من عصبية القومية الاقتصادية يوم غرس فى نفسه أن المال مال الله ، والعاقبة للمتقين .

رأى الكعبة غارقة فى النور وإن كانت الشمس قد غابت أو أوشكت أن تغيب . كان الكون كله خاشعا فى محراب الله ، وإن من شىء إلا يسبح بحمده ، وعباد الرحمن يشكرونه وعلى ربهم يتوكلون . والجبال تؤوب مع الساجدين ، والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه .

وأحس نابت رحابة فى نفسه ورقة فى وجدانه وأن روحه قد هامت لتتصل بروح الوجود ، وأنها سبحت فى بحور النشوة التى غمرت السموات والأرض ، وأن مشاعره كلها قد خرت ساجدة لله رب العالمين .

وألقى ببصره إلى بئر زمزم فإذا بالناس قد ازدحموا عندها : الرعاة قد وردوها ليسقوا غنمهم وإبلهم وماشيتهم ، والنسوة ينتظرن ليملأن جرارهن ، وإذا به يشرد ويتذكر هاجر جدته من كانت تملك البئر المباركة التى بدأت تتكون حولها أمة مؤمنة على نور من ربها وعلى صراط مستقيم .

نبض الوادى القفر بالحياة ، وخفقت فى ربوعه أرواح نفوس مؤمنة عرفت طريق الله ، وقام فى وسطه بيت مطهر تهفو إليه قلوب المسلمين ليكون منارة للعالمين ، فإن كان الله قد أمر خليله أن يحمل هاجر وإسماعيل إلى هذا الوادى فقد كان ذلك لنبأ عظيم ، لأمر جليل . وما الله يريد ظلما للعباد .

وانحدر نابت إلى الوادى وهو يبتهل إلى الله .

— ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شىء قدير .

وحانت منه التفاتة إلى شمال مكة فألفى خيام جرهم قد غطت سفوح الجبال بعد أن كانت خيامها قليلة متناثرة على عهد هاجر وإسماعيل . أصبحت جرهم قبيلة قوية وكان سيدها مضاض بن عمرو الجرهمى رجلا قوى الشكيمة له مكانته فى قومه لا يعصون ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

والتفت إلى الجنوب فإذا بخيام قطوراء انتشرت كقطع الليل تغطى الأرض ، كانت قطوراء قبيلة من العماليق ، وكان سيدها السميدع قد استأذن هاجر أن تنزل قبيلته حيث نزلت فأذنت له ، على أن تقر بأن زمزم لها ولأبنائها من بعدها .

كانت البئر لهاجر ولكهنا لم تكن ملكية خاصة ، فقد سمت عن أن تكون ملكية خاصة ، إنها للجميع يردها من يشاء لا يصد عنها إنسان . كل ما كان

لهاجر ولأبنائها من بعدها أن يصونوا حرية الشاربين وأن يكون لهم شرف سقاية حجيج بيت الله .

وراح نابت يهبط فى الجبل وقد ولى وجهه شطر المسجد الحرام ، وانطلق ابنه يشجب فى أثره وأطبق شفتيه احتراما لصمت الشيخ الجليل وما يدور فى رأسه من أفكار .

كان نابت مشغول البال بمضاض بن عمرو وبالسميدع وبأطماعهما التى تطل برأسها بين الحين والحين ، إنه يطمع فى أن يؤلف بين قلوب الجراهمة وقلوب قطوراء ، بل يطمع فى أخوة الجنس البشرى بينما كانت أطماع الآخرين أن تنصب كل قبيلة نفسها سيدة على القبائل الأخرى .

إنه يخاف على قومه شر الانقسامات الداخلية لأنه على ثقة أن الشقاق هو السوس الذى ينخر فى عظام قومه ، وما كان يخاف عليهم أن يغزوهم قوم آخرون بل كان يخشى أن يكون بأسهم بينهم شديدا .

فإذا كان اليوم سيد قومه ، له ولاية البيت وسقاية الحجيج ، يدين له بالزعامة والولاء جرهم وقطوراء ، ترى أيدين عمرو والسميدع بالولاء لإخوانه وأبنائه من بعده ؟

إن عمرا صاحب أطماع ، ويزيد من خطره أن إسماعيل وبنيه تزوجوا نساء من جرهم ، فأصبح عمرو وقبيلته أخوال بنى إسماعيل وهذا شرف يطال به على قطوراء والعماليق ، ولكن السميدع رجل حرب بأسه شديد وسلطانه مبين ، بعد أن دانت للعماليق الشام ومصر .

إن دعوة إبراهيم لا يزال وهجها شديدا فى قلوب من نزلوا حول زمزم ، أيستطيع نور الإيمان أن يبهر وساوس الشيطان فى نفس عمرو وفى نفس السميدع ، أم تنتصر شهوات الدنيا وتقوم بينهما حرب ؟

وأفزع ذلك الخاطر الشيخ وزلزل كيانه ، أيكون فى الحرم — الذى يلوذ

به الخائف ويأمن فيه الطير — قتال ؟ أتسفك الدماء فى البيت الذى أقيم ليكون منارة للسلام ؟ أتنتهك حرمة البيت وفيه أحفاد الخليل ؟ جزع لذلك الوسواس فراح يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم .

والتفت الشيخ خلفه — وقد وهن العظم منه واشتعل الرأس شيبا — فوقعت عيناه على ابنه يشجب ، فمد إليه يده وجذبه فى رفق وضمه إليه فى حنان ليقضى على القلق الموار فى جوفه ، وعلى الخوف من ذلك المجهول الذى استبد به .

ووقعت عيناه على منازل إخوته أسباط إسماعيل الصابر الأمين . إنهم أحد عشر زعيما ذوو قوة ومنعة ، تعلقت قلوبهم بالبيت الذى جعله الله مثابة للناس وأمنا كما تعلق به فؤاده ، فإن كانت أيامه على الأرض قد دنت فسيصون إخوته وبنوه حرمة البيت وسيظل مشرفا ما دامت السموات والأرض .

واستلم الحجر الأسود ، وراح يطوف بالبيت سبعا ، ويبتهل إلى الله ويدعو من أعماقه أن يصون بيته.وترقرقت العبرات فى مآقيه ، وكان كلما طاف بحجر إسماعيل حيث قبر هاجر وقبر أبيه ، يشرق بالدموع إذ كان مشفقا من فتنة تكون بعده .

وأتم طوافه وإذا بصوت يدوى فى أعماقه : إن للبيت ربا يحميه ، فاستشعر كأن حملا ثقيلا انزاح عن صدره وعاد لنفسه صفاؤها ورحابتها ، فذهب يصلى فى مقام إبراهيم وباب الكعبة أمامه وزمزم خلفه ، وقد عبق ما بين السماء والأرض بأريج أطيب من المسك لم يمتلئ به أنفه بل انتشت به روحه . وزاد فى طمأنينة فؤاده أن أحس كأن نورا انسكب فى وجدانه أنار بصيرته ، فقد كان على هدى من ربه .

جلس نابت فى الحرم وقد تهلل وجهه بالرضا ، وجلس يشجب إلى جواره ، وما إن رأى مضاض بن عمرو الجرهمى الشيخ الوقور حتى خف إليه

وجلس عنده يلقى السمع إل عذب حديثه . وسرعان ما هرع إليه السميدع بقلب سليم .

وجاء من كان فى الحرم من بنى إسماعيل إلى حيث جلس أمير القوم وشيخ الإسماعيليين وسلموا عليه فى توقير ، ثم جلسوا جميعا يصغون ، وإذا بصوت الزعيم يحلق بالمريدين فى فيض من الروح ويسمو بهم إلى هدف بعيد ، فنامت الأحقاد ودالت الدنيا إلى حين .

ودار الحديث عن القافلة التى تجهزت وتنتظر أن يأذن لها لتنطلق إلى مصر فإذا بأشواقه تتحرك ، فقد أقعدته السن عن أن يخرج مع الخارجين . إنه ضرب فى الشمال والجنوب والشرق والغرب وهبط إلى مصر ، فإذا كان قد استقر بجوار البيت فقد كانت الأرض كلها وطنه وقد مكنه دينه من أن يقضى على العصبية القومية السياسية ؛ فلم يعد يفضل أرضا على أرض أو شعبا على شعب .

وحانت منه التفاتة فرأى أخاه قيدار وابنه نبت يتحدثان مع كتّاب جلسوا عند الملتزم بين الحجر الأسود وباب الكعبة ، يكتبون الكتب ويبرمون العقود ويوثقون المواثيق ويشهدون رب البيت على ما اشترطوا من شروط ويسألونه أن ينزل غضبه على من خان أو ظلم ، فراح ينظر إلى أخيه وابن أخيه برهة وشع من عينه الحب العميق ، ثم عاد ليخوض مع من التفوا حوله فيما كان بينهم من الحديث .

وأقبل قيدار على الملأ مهيبا فخما عليه جلال لكأنما بعث إبراهيم خليل الرحمن من جديد ، كان أقرب آل إبراهيم شبها بجده العظيم ، فإن كانت ولاية البيت لعابت بكر إسماعيل فما كان سيل الضيفان لينقطع عن خيام قيدار السود .

كان قيدار ثانى أبناء إسماعيل وكان قريبا من قلوب إخوته وقلوب المؤمنين

لورعه وتقواه ، وما كان ابنه يشجب يفارقه فقد كان ينهل من بحر علمه ، وفسح الحاضرون مكانا للقادم الكريم ليجلس إلى جوار أخيه ، فانسل النبت ليجلس إلى جوار يشجب ابن عمه .

ودار الحديث وكان نابت بين لحظة وأخرى يلتفت إلى قيدار فيجده مشغولا عن عذب الكلام بأفكاره ، فمال عليه وقال فى رقة :

ـــ ما الذى يشغل بالك يا أخى ؟

فانتبه قيدار من شروده وقال :

ـــ الكتابة العربية .. إنها صعبة .. إن أبى رحمه الله يوم وضعها وضعها موصولة على لفظها ومنطقها .

ـــ وما تريد أن تفعل بها ؟

ـــ أريد أن أيسرها بأن أفرق بين ألفاظها .

ـــ افعل بارك الله فيك .

تعلمت هاجر ـــ أيام أن كانت أميرة فى مصر ـــ الكتابة الهيروغليفية على أيدى كهنة منف ، وقد علمت إسماعيل صبيا تلك الكتابة عند بئر زمزم بعد أن أسكنها إبراهيم بوادى مكة ، فلما شب إسماعيل طوَّر تلك الكتابة ووضع القلم العربى موصولا على لفظه ومنطقه ، وقد عزم قيدار على أن يفرق بين الألفاظ تيسيرا للكتابة ليخطو القلم العربى خطوة فى سبيل تطوره .

وقام نابت وقيدار فقام عمرو بن مضاض والسميدع ومن كان حاضرا من جرهم وقطوراء وبنى إسماعيل ، وانطلقوا إلى حيث كانت القافلة قد تجهزت للرحيل .

كانت القافلة تحمل البخور والطيب والفضة ، وشباب الإسماعيليين يتأهبون للانطلاق إلى وادى النيل ، فدنا نابت من شيخ القافلة وكان من بنى إسماعيل وقال له :

ـــ هل جاءت الهدايا التى ستحملها إلى أبناء عمنا ؟

ـــ نعم .

ـــ وهدايا أختنا ؟

ـــ إنها فى راحلتى .

كان المدينيون أبناء ابن عمه مدين ، وكان الأدوميون أبناء أختهم محلة ، وقد ولدتهم من ابن عمه العيص ، وسمى العيص آدم لأدمته فصار بنوه الأدوميين .

كان نابت على صلة طيبة بأبناء أعمامه جميعا ، وكان يرى فيهم ورثة النفحة الروحية الذين سينتشلون البشرية من المادية الطاغية ليبنوا حضارة متألقة على تقوى من الله . فإن كانوا اليوم جماعات متفرقة إلا أنهم متناسقون لا بد أن يندمجوا يوما فى مجتمع واحد قوى ما دام إلـٰههم واحدا وغايتهم واحدة ، وسيأتى اليوم الذى يسودون فيه بدينهم على كل الشعوب ويجعلون العالم أمة واحدة مؤمنة برب العالمين .

يا طالما زار عمه مدين وأخته محلة بنت إسماعيل ، وخرج إلى حبرون ليعزى فى موت عمه إسحاق ، وزار قبر الخليل ، واجتمع بابن عمه يعقوب وبنيه بعد أن عاد من حاران يحمل أهل بيته ، ويا طالما حاول أن يشد الأواصر بين بنى إسماعيل وبنى إسحاق ، فإن لم ينجح فى أن يحقق حلمه الجميل فى روح دين إبراهيم فقد كان على ثقة من أن ذلك الأمل سيتحقق فى يوم من الأيام .

كان قلبه عامرا بطاقة زوحية رفعته فوق شهوات النفس وعرض الدنيا وزينة الحياة ، فحسب أن قلوب بنى إسماعيل وبنى إسحاق تطهرت من حب المادة ما داموا قد ورثوا دين إبراهيم ، وأنهم سائرون على الطريق .

وتلفت حوله فإذا به محاط ببنى إسماعيل وأخوالهم من جرهم وبرجال من قطوراء ، رآهم فى تلك اللحظة كأنهم على قلب رجل واحد فأشرق وجهه

بالرضا وأشار للقافلة أن تنطلق وهو يقول :

ـــ سيروا باسم الله وعلى بركة الله .

وفصلت العير وانسابت قافلة الإسماعيليين فى محراب الكون فى رعاية الله بعد أن ألقوا نظرة وداع على البيت المحرم ، ووقف نابت يرقب القافلة وقد راودته أشواقه وحملته إلى حبرون ، وإذا بهمس يسرى فى وجدانه : « يعقوب ! إنك مبارك ، إنك من الصالحين . ترى كيف حالك يا يعقوب ؟ » .

٢

وقف يعقوب يصلى فى المحراب فى خيمة الرب التى أقامها جده الخليل فى الأرض التى بارك الله فيها للعالمين ، وكان قلبه خاشعا لذكر الله . ولما أتم الصلاة راح يسأل الله أن يأتيه فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ، ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين .

ذهب إبراهيم الخليل و لم يترك فى حبرون إلا خيمة تقام فيها الشعائر ، فلم يأمره الله أن يقيم بيته فى حبرون ، بل بوأ له مكان بيته هناك فى مكة ، وأمره أن يقيم القواعد من البيت وإسماعيل ، وعهد إليهما أن يطهرا بيته للطائفين والقائمين والركع السجود ، وأمر إبرهيم أن يؤذن فى الناس بالحج يأتوه رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق .

إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين ، وقد فرض الله على الناس حجه و لم يفرض عليهم أن يشدوا الرحال إلى حبرون ، ولا جرم أن الله يعلم السر فى السموات والأرض ، إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون .

وقدر الله أن يكون لبنى إسماعيل شرف ولاية بيته وخدمة حجيجه ،

وجعل الله لكل أمة منسكا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ، فإلـٰهكم إلـٰه واحد ، حنفاء لله غير مشركين به ، ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ، ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب .

وأوحى الله إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب ما أوحى وفضلهم على العالمين ، فإن كان الله قد أكرمهم فبما قدمت أيديهم فقد عنت وجوههم للحى القيوم وأسلموا لله رب العالمين ، وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال : إنى جاعلك للناس إماما ، قال : ومن ذريتى ؟ قال : لا ينال عهدى الظالمين .

لا يفضل الله ذرية على ذرية ، ولا شعبا على شعب ، ولا أمة على أمة بل يصطفى من عباده المؤمنين ، كذلك يجزى المحسنين إنه كان خبيرا بصيرا .

وخرج يعقوب من الخيمة يتلفت حوله فألفى الوجود ساجدا فى معبد الرب ، يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض له الملك وله الحمد ، ولكن الكنعانيين قلوبهم غلف وفى آذانهم وقر ، عميت بصائرهم وقست أكبادهم ، وألهتهم التجارة والبيع عن ذكر الله فصارت غاية حياتهم جمع الأموال وإشباع الشهوات وجنى اللذات من كل محرم .

نهى جده خليل الرحمن ابنه إسحاق عن أن يتزوج فيهم ، وبعث اليعازر الدمشقى خازن بيت ماله إلى حاران ليخطب له رفقة ابنة عمه ناحور ، وأرسله أبوه إسحاق إلى بيت خاله لابان ليتخذ له زوجة من بنات خاله لتكون له ذرية طيبة لا يجرى فى عروقها دنس الكنعانيين .

وسرح خياله يسترجع ما فات فرأى نفسه شابا يافعا يدخل حاران ، ورأى راحيل عند البئر فخفق بحبها قلبه ، فانطلق إلى خاله يخطب إليه ابنته فقال له :

ـــ هل من مال أزوجك عليه ؟

ـــ لا ، إلا أنى أخدمك أجيرا ، تستوفى بذلك صداق ابنتك .

ـــ إن صداقها أن تخدمنى سبع حجج .

ـــ فزوجنى راحيل وهى شرطى ولها أخدمك .

ـــ ذلك بينى وبينك .

ورأى يعقوب نفسه وهو يرعى لخاله سبع سنين ، فلما أصبح وجد أن خاله زوجه ابنته الكبرى ليا وكان شرطه أن يزوجه راحيل .

وجاء خاله مغاضبا وهو فى نادى قومه وقال له :

ـــ غررت بى وخدعتنى واستحللت عملى سبع سنين ، ودلست علىّ غير امرأتى .

ـــ يا بن أختى أردت أن تدخل على خالك العار والسُّبة وهو خالك ووالدك ، ومتى رأيت الناس يزوجون الصغرى قبل الكبرى ؟ فهلم فاخدمنى سبع حجج أخرى فأزوجك أختها .

ورأى يعقوب نفسه وهو يرعى لخاله سبعا ، ولدت له فيها ليا أربعة : روبيل ويهوذا وشمعان ولاوى . ورأى ليلة تحقيق حلمه ، تلك الليلة المرتقبة التى دفع فيها خاله إليه راحيل ، كانت أسعد ليالى حياته .

وتأخر الولد على راحيل الحبيبة فوهبت له جاريتها بلها ، ووهبت له ليا جاريتها زلفة منافسة لراحيل فى جاريتها ، وترعرعت أسرته ودب الشقاق بينه وبين خاله وكان لا بد من الرحيل .

ورأى يعقوب وجه راحيل وقد تهلل بالفرح يوم ولدت له بعد اليأس يوسف ، ورآها وهو باسر حزين تجود بأنفاسها فى الطريق بعد أن ولدت له بنيامين . كانت راحيل أثيرة عنده ، وكان يوسف أقرب بنيها شبها بها فكان أحب أبنائه الاثنى عشر إلى قلبه .

وغام وجه يعقوب بسحابة من الحزن لما تذكر ذلك اليوم المشئوم الذى

خرجت فيه ابنته دينة من ليا تنظر نبات الأرض ، لقد رآها شكيم ابن سيد القوم وشغف بها حبا فاغتصبها بسلطان أبيه .

واتخذ شكيم دينه بنت إسرائيل زوجة ، إلا أن ذلك الزواج لم يمح ما لحق إسرائيل وبنيه من عار ، غضب وغضبوا ، ولكن ماذا يستطيعون أن يفعلوا وهم قلة لا عصبية لهم ، إنهم غرباء فى فلسطين .

إسرائيل ! إنه ليذكر ذلك اليوم الذى سمى فيه إسرائيل ، كان فى طريقه إلى حاران إلى بيت خاله لابان قبل أن يلتمس من خاله أن يزوجه راحيل ، إنه نام فى الطريق فرأى فيما يرى النائم سلما منصوبا إلى باب من أبواب السماء والملائكة تنزل وتعرج فيه . ولقد أوحى إليه فى تلك الليلة أوامر السماء .

وسمع يعقوب حركة بالقرب منه فرفع رأسه ونظر ، ثم ما لبث أن هتف فى حب وحنان :

ـــ يوسف .

وارتمى يوسف فى أحضان أبيه وراح إسرائيل يرنو إلى وجه ابنه ، فرأى كأنما قسم الحسن كله بينه وبين أمه راحيل ، وتذكر ذلك اليوم الذى قال فيه يوسف لإخوته رأيت فيما يرى النائم أننا نحزم حزما فى الحقل ، وإذا بحزمتى قد قامت واحتاطت حزمكم ، وإذا بحزمكم جميعا قد سجدت لحزمتى . ورن فى أذنيه أصوات أبنائه تقول ليوسف : لعلك تملك علينا ملكا أو تتسلط علينا .

كانت فى نبرات أبنائه الأحد عشر كراهية ليوسف ، بدت البغضاء من أفواههم فأشفق الأب على ابنه الأثير من عداوة إخوته ، فضم يوسف واحتواه فى أحضانه كأنما يحميه من خطر يوشك أن ينقض عليه .

ورفع يوسف رأسه ونظر إلى وجه أبيه ثم قال :

ـــ يا أبت ! إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى

ساجدين .

قال :

ـــ يا بنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق ، إن ربك عليم حكيم .

واجتمع أبناء يعقوب يتشاورون قالوا :

ـــ ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة ، إن أبانا لفى ضلال مبين.اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين .

قال يهوذا ، من سيصبح أبا لليهود :

ـــ لا تقتلوا يوسف وألقوه فى غيابت الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين .

وراحوا إلى أبيهم يستبقون ، فألفوه يسامر يوسف الحبيب ، قالوا :

ـــ يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون ؟ أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون .

قال : إنى ليحزننى أن تذهبوا به ، وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون .

قالوا : لئن أكله الذئب ونحن عصبة ، إنا إذا لخاسرون .

وخرج يوسف مع إخوته ـــ يتهلل بالفرح ـــ ليرتعوا ويلعبوا ، فلما برزوا إلى البرية أظهروا له العداوة وراح أحد إخوته يضربه فيستغيث بالآخر فيضربه .. لا يرى منهم رحيما ، ضربوه حتى كادوا يقتلونه فراح يصيح ويقول :

ـــ يا أبتاه يا يعقوب ! لم تعلم ما يصنع بابنك بنو الإماء .

فتقدم يهوذا وقال :

ـــ أليس قد أعطيتمونى موثقا ألا تقتلوه ؟

فانطلقوا به إلى الجب ليطرحوه ، فأخذوا يدلونه فى البئر فيتعلق بشفيرها ، فربطوا يديه ونزعوا القميص عنه فقال :

ـــ يا إخوتاه ؟ ردوا علىّ قميصى أتوارى به فى الجب .

ـــ ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكبا تؤنسك .

ودلوه فى البئر وألقوه فى مائها ، وراح يوسف يقاوم الغرق حتى بلغ صخرة فآوى إليها وأوحى الله إليه :

ـــ لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون . .

وجاءوا أباهم عشاء يبكون ، قالوا :

ـــ يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب ، وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين .

وجاءوا على قميصه بدم كذب ، قال :

ـــ بل سولت لكم أنفسكم أمرا ، فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون .

وانطلقت قافلة المدينيين فى الصحراء وعلى مقربة من البئر حطت رحالها ، وأرسلوا واردهم فأدلى دلوه فتعلق يوسف بالدلو ، فلما رآه الرجل اعتراه دهش لكأنما رأى آدم يوم خلقه الله بيده وصوره ونفخ فيه من روحه ، كان حسنه كضوء النهار ، أبيض اللون جميل الوجه جعد الشعر واسع العينين أقنى الأنف بخده الأيمن خال أسود ، توج ـــ على حداثة سنه ـــ بتاج الوقار ، فلما وجده الرجل قال :

ـــ يا بشرى ! هذا غلام .

وأخذ الرجل يوسف وعاد به إلى راحلته ، ولما استأنفت قافلة المدينيين رحلتها انطلق يوسف معها . وبينما هو فى الطريق إذ وقعت عيناه على قبر أمه فلم يتمالك ورمى نفسه من على الناقة إلى القبر وراح يروى الثرى بعبراته ويقول :

ـــ أمى راحيل ! انظرى يا أماه ماذا فعلوا بحبيبك ؟ ماذا لقيت يا أماه من بعدك ؟ نزعوا يا أماه عنى قميصى وفى غيابت الجب ألقونى . لم يرحمونى يا أماه وباعونى بيع العبيد ، إنى أسير يا أماه راحيل . إنى أسير .. أسير .

وجاء الرجل وانتزعه من فوق قبر أمه وهو يبكى ويصيح :

ـــ أمى .. راحيل .. أمى .. أصبحت عبدا يا أماه .. عبدا .. عبدا .

وجاءت قافلة بنى إسماعيل ، إنها اجتازت جلعاد والتقت بقافلة المدينيين فى أرض شكيم . وعرض أبناء مدين بن إبراهيم الخليل على أبناء إسماعيل بن إبراهيم أن يشتروا الغلام فشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين .

وانطلقت قافلة الإسماعيليين إلى مصر وقد حملوا يوسف ، وما دار بخلد أحد منهم أن ذلك الذى شروه ابن عمهم يعقوب ، ومن أين لهم أن يعلموا وقد كان يتحدث العبرية لغة الكنعانيين !

كان نابت بن إسماعيل يرى فى المديبين وأبناء إسحاق وأبناء إسماعيل ورثة النفحة الروحية الذين سينتشلون البشرية من المادية الطاغية ليبنوا حضارة عالمية على أساس من الدين ، وكان أمله فى المستقبل عظيما ، فهم وإن كانوا جماعات متفرقة إلا أنهم متناسقون ما أيسر أن يندمجوا فى مجتمع واحد قوى يدعو إلى الله وحده . كان ذلك حلم الشيخ العربى زعيم الإسماعيليين ، ولكن الأحداث كانت تباعد بين تلك الجماعات .

كانت لغة الإسماعيليين والمدينيين وبنى إسحاق واحدة ، كانوا يتكلمون

العربية وكانوا مسلمين . إلا أن بنى إسرائيل أخذوا عن الكنعانيين اللغة العبرية وهى وإن كانت فرعا من العربية إلا أنها كانت بداية الفرقة والاختلاف .

اجتازت قافلة بنى إسماعيل الحدود وانسابت فى أرض جوشن ومرت بمعابد « باسنت » إلـهة اللذة والمرح ، ورأى الرجال العاهرات المقدسات فغضوا من أبصارهم فقد رفعهم دينهم عن أن يتردوا فى الخطيئة استجابة لرغبات الأجساد .

ودخل يوسف مصر عبدا يتمزق من الحزن كما خرجت هاجر منها أمة تتمزق من الحزن ، وتلك إرادة الله ، والله فعال لما يريد ..

وبلغت القافلة أواريس ودخلها يوسف أسيرا ذليلا كما دخلتها سارة من قبل ، وراح يقلب وجهه فى القصور والمسلات ومعابد « ست » إلـه القوم وقد طاف بذهنه ما سمعه عن قدوم جده الخليل إلى هذه الأرض ، ترى إن قال للقوم إنه حفيد ذلك الرجل المبارك ـــ الذى خرجوا معه فراسخ تعظيما له وإجلالا ـــ أيصدقونه ؟

وآثر أن يصمت ، فمن يصدق أن حفيد خليل الرحمن يباع فى الأسواق بيع العبيد ؟

واغتسل يوسف وألبسوه ثيابا جديدة وساقوه إلى السوق ، فإذا بوجهه يتلألأ نورا وإذا بكل من فى السوق يأتون يتنافسون على شرائه ، حتى قطفير عزيز مصر ورئيس وزرائها جاء يبتاع من بهر حسنه ضوء النهار .

وترافع الناس فى ثمنه وتزايدوا حتى قال قطفير :

ـــ أدفع وزنه مسكا وورقا وحريرا .

وابتاعه قطفير وفرح بنو إسماعيل بثمنه ، كانوا فى حاجة إلى الورق ليدفعوه إلى قيدار ليعلم أبناءهم فيه الكتابة .

وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته :

ـــ أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا .

٣

خرج الرعاة فى عماية الصبح من دور نابت وقيدار وإذبئيل وإخوتهم أبناء إسماعيل ، تلك الدور التى بدأت تنتشر على سفوح الجبال المحيطة بالحرم ، وانحدروا إلى الوادى المقدس وقد امتلأت نفوسهم بالضياء المتألق من وراء الأفق ، فإن تكن شمس النهار لم تسطع بعد فقد نفذ شعاع الله المضىء إلى نفس المؤمنين .

انحدار الرعاة إلى بطن الوادى المقدس سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، قد امتلأت نفوسهم بنشوة الروح ورأت عيونهم فى الكون جمالا لا يحسه إلا من أحسوا بخفقات روح الوجود بين جنوبهم ، فقالوا بأفئدتهم وألسنتهم :

ـــ ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار .

وراحوا يطوفون بالبيت سبعا ، وأقبل من شمال مكة أهل جرهم ، وتدفق من جنوبها أهل قطوراء فامتلأ الحرم بالطائفين والعاكفين والركع السجود ، وأقبلت قافلة من اليمن وعادت قافلة من الشام فخف الرجال إلى الكعبة ليطوفوا بها ويسبحوا لرب العرش العظيم .

ألف الله بين قلوب المؤمنين فقويت الروابط الاجتماعية بين من أقاموا حول البئر ومن جاءوا ليطوفوا بالحرم ، وبدأ ميلاد حضارة بالوادى القفر الذى أسكن إبراهيم به هاجر وإسماعيل وجرهم وقطوراء ، وبين رجال القوافل الغادين الرائحين بين الشمال والجنوب ، وقد اعتصموا جميعا بحبل الله فاتحدوا بعد أن كانوا متفرقين .

وأقبل من الشمال مضاض بن عمرو وحوله شيوخ جرهم وشبابها ، وورد من الجنوب السميدع ورجال قطوراء ، والتقى أهل جرهم وأهل قطوراء عند الحجر الأسود فتبادلوا التحية ، ثم راحوا يطوفون بالبيت وقد اختلط بعضهم ببعض ، وارتفعت الأصوات بالابتهالات إلى الله الواحد القهار ، وقد نامت الأحقاد واختفت البغضاء وعمرت القلوب بنور الإيمان .

وجلس الرجال إلى الرجال ينظرون فى أمر دنياهم بعد أن غسلت الصلوات أفئدتهم من أدران الغش والطمع والنفاق ، فإذا بالغايات الاجتماعية الطيبة تتحقق فى سماحة ويسر بعد أن ولجوا الحياة من أطيب أبوابها .

وخرجت جحافل الغنم من دور بنى إسماعيل وخيامهم فى طريقها إلى شعاب مكة لترعى وفى أثرها الرعاة والعبيد وصبيان القبائل ، فبدا كأن سفوح الجبال قد حجبت بصوف أبيض وأحمر وأسود ، وثار النقع وارتفعت سحب التراب تغطى الوادى كأنما ألقى عليه وشاح من رماد .

كان الرعاة بسطاء حفاة الأقدام فقراء ، بيد أن الدين الذى غرس فى وجدانهم بدل طرائق نظرتهم إلى الكون والحياة ، أمدهم بعلم جعلهم يتطلعون إلى أن يكونوا رعاة شعوب لا رعاة أغنام .

وخرج قيدار من داره بعد أن صار شيخا يتوكأ على ذراع ابنه النبت وعصاه ، كان يستشعر الوهن يسرى فى أعضائه إلا أن ذهنه كان نشيطا مشغولا بالخط العربى الذى وضعه أبوه إسماعيل موصولا ، وهو يريد أن يفرق بينه ليسره على الكنعانيين وغيرهم على السواء .

كان يمضى الهزيع الأول من الليل فى الصلاة وتلاوة ما تيسر من صحف إبراهيم ، وكان يستيقظ قبل دلوك الشمس يسبح لله ويدعوه بقلب سليم أن يلحقه بالصالحين إنه من عباد الله المؤمنين .

إنه على الرغم من شيخوخته لم يتنسك ولم يعتزل مجتمعه ولم يقرر أن يمضى